غسّان كنفاني

الآثار الكاملة

القِصَص القَصِيرة

المجلّد الثّاني

مؤسّسة الأبحاث العربيّة

مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافية

MIDDLEBURY COLLEGE LIBRARY

* غسان كنفاني: الآثار الكاملة، المجلد الثاني، القصص القصيرة.
* الطبعة الثالثة ١٩٨٧ (الطبعة الثانية ١٩٨٠، الطبعة الأولى ١٩٧٣).
* جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز إعادة النشر بأية طريقة إلا بموافقة خطية مسبقة من مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.
ص. ب ٥٠٥٧/ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥ تلكس ٢٠٦٣٩، دلتا، بيروت ـ لبنان

IAR (RAWAFID) ltd. Nicosia, Cyprus.

P. O. Box, 7047, tel (357) 2-452670 Tlx, 5223 Rawafid Cy.

* حقوق النشر مرخّص بها قانونياً بمقتضى الاتفاق الخطي بين المؤسسة ومؤسسة غسان كنفاني الثقافية.
* الرسوم الداخلية: ضياء العزاوي.
* تصميم الغلاف: نجاح طاهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

كان من هواة الفلسفة .. والحياة بالنسبة له هي مجرد نظرية..

لقد بدأ يتفلسف منذ كان طفلاً ، ويذكر تماماً كيف اوجد لنفسه سؤالاً شغله طيلة اسبوع كامل ، واعتبره مشكلة جديرة بالتفكير العميق : لماذا يلبس الانسان القبعة في رأسه والحذاء في قدمه ؟. لماذا لا يضع على رأسه حذاء ويلبس قبعة في قدمه ؟. لماذا ؟. وفكر مرة اخرى بسؤال جديد : لماذا لا يسير الانسان على يديه ورجليه شأن سائر الحيوانات .. ألا يكون مسيره ذاك مدعاة لراحة اكثر ؟

الا ان مستوى فلسفته ارتفع مع مسير الزمن . وتوصل مؤخراً الى قرار موجز : « طالما ان الانسان دفع ليعيش دون ان يؤخذ رأيه بذلك ، فلماذا لا يختار هو وحده نهايته » . ومن هذا القرار الموجز توصل الى قرار اكثر ايجازاً : « الموت هو خلاصة الحياة » ..

وهكذا ، توصل الى استقرار ، دعاه بنهاية المطاف .. واخذ ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها ان يشرع باختيار طريقة مشرفة

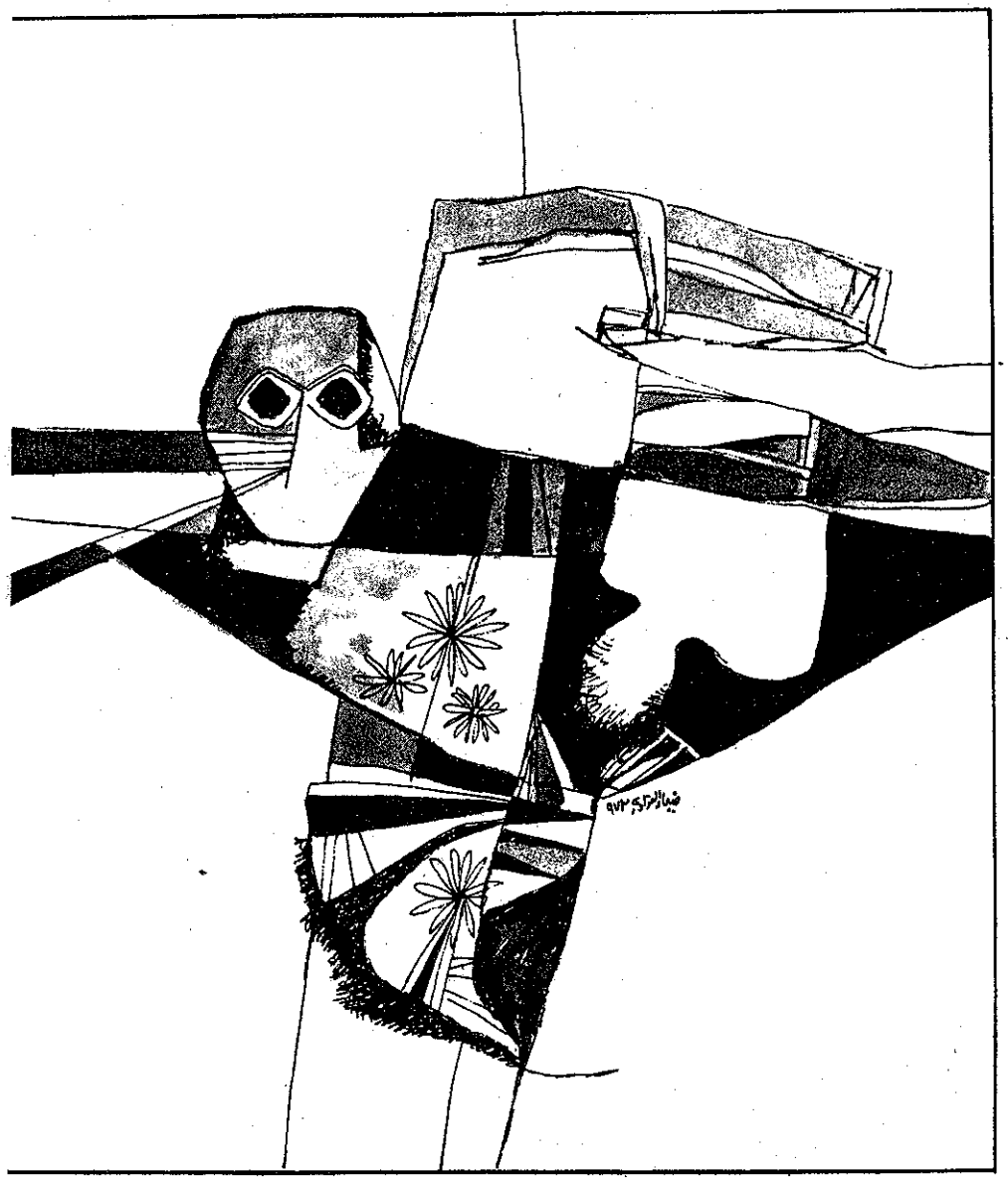

لميتة ما ..

اذن ، فان من يدعي ان عبد الجبار دفع دفعاً ليشترك في ثورة .... لا يعرف الحقيقة مطلقاً .. فهو قد اختار بنفسه ان يذهب لمركز التطوع وأن يقف أمام طاولة الضابط الذي لم يكن قد وجد ، بعد ، بذلة عسكرية ملائمة ، وان يقول بصوت ثابت :

— اريد بارودة لاستطيع ان اشترك بالثورة ..

وسرعان ما اكتشف ان قضية البارودة ليست شيئاً سهلاً بالمرة .. وان عليه هو ان يصطاد بارودة ما بالكيفية التي يريد .. ومن ثم يستطيع ان يشترك بالثورة ..

— ولكنني قد أموت قبل ان احصل على بارودة ..

هكذا قال حانقاً ، ولكنه ما لبث ان سكت وهو يسمع جواباً غريباً ، ولكنه صحيح تقريباً :

— وهل أتيت إلى هنا كي تستمتع بصيفية لطيفة .. ثم لتعود الى دارك ؟

هنا ، فكر ان فلسفته تقتضي تعديلاً طفيفاً .. اذ انه ربما مات قبل ان يحصل على بارودة ، ولم تنقض فترة طويلة جداً كي يتوصل لقرار موجز جديد : « ليس المهم ان يموت الانسان ، ان يحقق فكرته النبيلة .. بل المهم ان يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل ان يموت .. »

وهكذا استطاع عبد الجبار ان يستحصل على بارودة جديدة تقريباً ، ولم تكلفه جهداً بالشكل الذي تصور أو بالشكل الذي

أعد ، اذ انه كان يتجول خارج « ... » بعد معركة حدثت في الصباح ، فوجد جندياً ميتاً ، « والميت لا يحتاج لبارودة » ، هكذا قال لنفسه وهو يقلب الجثة عن بارودة فرنسية ذات فوهة مدببـــة ..

وبين رفاق المتراس عرف عبد الجبار « بالفيلسوف » ، ووجد المناضلون في فلسفته منطقاً صالحاً لتبرير الامور التي تحدث .. كان معظم الثوار من الشباب ، وكان يسره انه يكبرهم قليلاً وانه يستطيع ان يجمعهم بعد كل معركة ليدرسهم قراره الموجز الجديد بشأن الموت .

وبعد كل قتيل ، كانت الفلسفة تتطور وتتغير .. ففي ليلة مظلمة مات فلاح أمي .. وقبل ان يسقط فوق المتراس شتم « ... » ورجال « ... » .. وفكر عبد الجبار بكلمة تصلح لتأبين الشهيد ، فإذا بالكلمة تصبح قراره الموجز الجديد : « ان الفكرة النبيلة لا تحتاج غالباً للفهم .. بل تحتاج للاحساس ! » وبعد ليلة واحدة مات شاب كان قد خرج من المتراس وهجم بالسكين على جندي كان يزحف قرب الجدار ، واطلقت النار عليه وهو في طريق عودته الى المتراس .. وقال عبد الجبار « ان الشجاعة هي مقياس الاخلاص .. »

وكان عبد الجبار بالذات شجاعاً .. فلقد طلب منه الضابط وكان قد توصل اخيراً الى ايجاد بذلة عسكرية ملائمة ، ان يذهب للميناء كي يرى ماذا يجري هناك ، وقال له ان منظر وجهه الهادى الحزين لا يثير الريبة في قلوب الخائفين ..

وسار عبدالجبار في الشوارع بلا سلاح ، ووصل للميناء ، وتجول ما شاء له التجول ، ثم قفل عائداً الى متراسه ..

ان الامور تجري عكس ما يفترض المرء .. فلقد عرفه واحد ممن اشتركوا مرة في الهجوم .. وقبض عليه .. وساقه الى حيث قال له ضابط خائف بعد ان صفعه :

— انك ثائر ...

— نعم ...

— ملعون ..

— كلا !

ولم ينس عبد الجبار وهو تحت الضرب الذي لا يرحم ان يضع قراراً موجزاً جديداً : « ان ضرب السجين هو تعبير مغرور عن الخوف ... »

وشعر ، اثر ذلك القرار ، بشيء من الارتياح ..

* * *

ولكن الامور جرت ، من ثم ، على نحو مغاير .

فلقد توصل الضابط اخيراً الى فكرة اعتبرها ، بينه وبين أعوانه المخلصين ، فكرة ذكية .. بينما عدها عبد الجبار تصرفاً مغروراً آخر ينتج في العادة عن الخوف ...

قال له الضابط :

ستسير أمامنا الى متراسكم الملعون ... وستعلن لرفاقك المجانين أنك أحضرت معك عدداً جديداً من الثوار ... ثم

سيكمل جنودي بقية القصة ...

— وأنا ؟

— ستعيش معززاً مكرماً ... أو ستموت كالكلب ان حاولت خيانتنا ..

وقال عبد الجبار في ذات نفسه « ان الخيانة في حد ذاتها ميتة حقيرة » .

وأمام صفين من الجنود سار عبد الجبار مرفوع الجبين ، وفوهة مدفع رشاش تنخر في خاصرته .. وقبل أن يصل إلى المتراس بقليل سمع صوت الضابط المبحوح يفح في الظلام :

— هيا ..

لم يكن عبد الجبار خائفاً اذ ان رفاق المتراس قالوا ان صوته كان ثابتاً قوياً عندما سمعوه يصيح :

— .. لقد احضرت لكم خمسين جندياً .

* * *

لم يكن قد مات عبد الجبار ، بعد ، عندما وصل رفاقه اليه ملقى بين جثث الجنود ... وبصعوبة جمة سمع أحدهم صوته يملي قراره الموجز الاخير :

« ليس المهم أن يموت احدنا .. المهم ان تستمروا .. »

ثم مات .

دمشق — ٢١/ ٧/ ١٩٥٨